جامعة بيرزيت
في الطريق إلى المئوية الثانية

السلام على غزة
حتى تعود إليها الحياة،
السلام على الحاضرين والغائبين.

حياً في جامعة الشهداء، وابناً سابقاً للحركة الطلابية، وعضواً لاحقاً في نقابة الأساتذة والموظفين، أقف اليوم لأقول كلاماً وراء الكلام عن "الحقيقة والأوجه الغائبة": حقيقة هذه المؤسسة الوطنية، والأوجه الغائبة عنها. حقيقة الجسد، وأوجه الروح.

أما الجسد: فأبنية ترونها، وناس تعرفونهم، وحكاياتٍ تجدون بعضاً منها في المطوية التي بين أيديكم، بياناً وشعاراً وفعاليات، والتي أثق بأنها لن تطوى بانقضاء هذا الحدث. وأما الروح ففعل ينتحل صفات القول، قوامه رسالة الجامعة التي نذرت نفسها للتعليم، والبحث، وخدمة المجتمع. قديماً قال أعداؤنا في وصف جامعة استعمارية أقيمت على أرض القدس المحتلة، بالتزامن مع ولادة فكرة جامعتنا قبل مائة عام، إنها: "الهيكل الروحي للفكرة الصهيونية ومشروع دولتها." وأما جامعتنا، فروح لا يأسرها هيكل، وفكرة لا تسيجها عنصرية، لأنها مؤسسة-شجرة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، زرعها آل ناصر الكرام في العام 1924، قريباً من القدس، ونيابة عن الحركة الوطنية الفلسطينية لتكون رافعة أكاديمية وساحة ثقافية وبوصلة سياسية لمشروعنا الوطني الذي أظهرته إلى الوجود، بعد أربعين عاماً، منظمة التحرير الفلسطينية حين كانت كذلك... نمت الشجرة، وصارت المدرسة كلية، ثم صارت الكلية جامعة بيرزيت. صارت "بيرزيت" كلمة واحدة، لا فراغ بين حروفها، كما هي وحدة الأرض-الحياة.

حينها، وقد أكملت مأساةُ النكسة كارثةَ النكبة في لحظة عربية مريضة كالتي نشهدها الآن، قيل "إن الجامعات الفلسطينية خيام تتحول فيها الريح إلى روح". أثمرت الشجرة، واتسعت الخيمة-الجامعة، ولم يتوقف اللاجئون إليها من أربعة أركان فلسطين المحتلة عن سدانة الحلم الذي لا يزال يزاحم الحقيقة على الحضور. لم نتوقف عن رفد "مشروع الروح"، روح بيرزيت وروح فلسطين، بمقومات وجوده: تعليماً مقاوماً، ومعرفةً تحررية، وخدمة للجماعة الوطنية في نيل الحرية وتحقيق التحرير. لم يكن في وسعنا إلا أن نكون شهوداً على "مشروع الروح"، وشواهد في مسار الوصول، وقد قضى أجملنا شهداء على الطريق... صرنا: "جامعة الشهداء". صرنا نشببهم، لنحيا مثلهم، في تراب الحكاية. لم نخفض صوتنا. لم تثننا اتهامات أصدقائنا لنا بالإيديولوجيا عن العمل. ولم تحملنا ادعاءات أعدائنا بأن "البنادق تزاحم الكتب فوق رفوف مكتباتنا" على المفاضلة بين الجميل والأجمل.

وحتى لا نتورط في ترسيم الفارق الهش بين الكتاب المذكر والبندقية المؤنثة، ونورط الجامعة وهي على مهداف العدو، فلا شفاء من البلاغة إلا بمزيد منها للقول على دور الجامعة ومكانتها. هنا وقف شاعرنا الوطني محمود درويش مدافعاً عن الحق في البلاغة كما يدافع عن الحق في الحياة. فإثر رجوعه إلى فلسطين، آثر أن تكون أمسيته الشعرية الأولى في جامعة بيرزيت. وفي احتفال الجامعة وعموم فلسطين بتحرير جنوب لبنان في ربيع العام 2000، أعلن شاعرنا أن "البلاغة لا تحتاج إلى بليغ" حين أكد، بلا تلعثم، أن أبلغ الأفعال هو فعل المقاومة التي حررت الجنوب، وسوف تحرر كلَّ جنوب، بما في ذلك غزة التي لن تكف عن تعليمنا دروس الجدارة

بالحياة. بعد سنتين، وفي أوج انتفاضة الأقصى، وقف الشاعر مخاطباً وفداً من كبار كتاب العالم، وقد زار الجامعة: "أعرف أن سادة الكلمات لا يحتاجون إلى الكلمات الكبيرة أمام بلاغة الدم. فلتكن كلماتنا بسيطة كحقوقنا. لقد ولدنا على هذه الأرض، ومن هذه الأرض. ولم نعرف أماً أُخرى، ولا لغة أُخرى أولى غير لغتها. وحين أدركنا أن فيها الكثير من التاريخ، والعديد من الأنبياء، تعملنا أن التعددية فضاء لا زنزانة. وأنه ليس في وسع أحد أن يحتكر الأرض، والله، والذاكرة. ونعرف أن التاريخ ليس أنيقاً ولا عادلاً. ولكن مهمتنا نحن البشر، هي أن نؤنسن التاريخ، فنحن ضحاياه ونتاجه في آن معاً.... هذه بلادنا الواقعية لا الأسطورية. وهذا الاحتلال هو احتلال أجنبي لا يُستثنى من التعريف العام مهما استعار من أسماء الحق الإلهي، فالله ليس ملكية شخصية لأحد." ومضي في القول حتى بلغ أبلغه: "إن مقاومة الاحتلال ليست حقاً فقط. إنها واجب وطني وإنساني ينقلنا من شرط العبودية إلى شرط الحرية. وإن أقصر الطرق لتجنب المزيد من الكارثة، والوصول إلى السلام، هو تحرُّر الفلسطينيين من الاحتلال، وتحرر [الصهاينة] من وهم السيطرة على شعب آخر. لكننا مصابون بداءٍ لا شفاء منه هو الأمل. الأمل في التحرر والاستقلال. الأمل في حياة طبيعية لا نكون فيها أبطالاً ولا ضحايا."

أما جناسُ الشاعر محمود درويش وطباقُه، فهو مفكرنا الكوني إدوارد سعيد، والذي ألحق بجامعته في نيويورك تهمة صهيونية مفادها أن "كولومبيا هي بيرزيت على نهر الهدسن"، فقد وقف هنا أيضاً وشارك صاحبه الإشادة بدور جامعة بيرزيت، والإعجاب بفرادتها في فلسطين والعالم العربي، وهي جامعة النقد والاختلاف والتعددية الوطنية "التي لن يكون لنا دونها حياة أو بقاء"... هكذا وصفها إدوارد سعيد. وهكذا رأى هذان الكبيران أن دور جامعة بيرزيت يكمن "في الدفاع عن الثقافة الوطنية وتحصينها ضد أخطار التشكيك بالذات." وقد أشارا، في أكثر من حضور لهما على مقربة من هذا المكان "إلى سعة المجال التاريخي الذي ينبغي لمشروعنا الثقافي [الذي تتصدره جامعة بيرزيت] أن يتحرك فيه، وهو مطالب بالامتداد على رقعة مجالات معرفية شاسعة في مقدمتها: حماية ذاكرتنا الجماعية، وحقنا في سرد روايتنا التاريخية، والدفاع عن وعينا التاريخي، وتطوير آليات التعبير عن انتمائنا القومي والإنساني، وتعميق ثقافة الديمقراطية والحرية والكرامة."

هكذا يرى المحبون جامعة بيرزيت من الخارج، بين الدور والمكانة. أما من الداخل، فيتوسط هذين الحدين مفهوم لا حد له، وهو "روح بيرزيت". وروح بيرزيت، التي لا حياة للجامعة من دونها، في عرف الأستاذ حنا ناصر، أول رؤساء المؤسسة بعد أن صارت جامعة، هي "الفكر الثوري الحر"، وهي الضمانة الوحيدة لاستمرارية الجامعة في أداء دورها، والحفاظ على مكانتها. ولكن هذه الروح، التي تحرس الجامعة وتحرسها الجامعة، تستند إلى سارية. وما سارية الروح إلا ذاتَنا الجماعية، بأركانها الطلابية والنقابية والإدارية. الذاتُ التي خاطبها الأستاذ حنا ناصر في أول حفل تخريج للجامعة في العام 1976، عبر تسجيل مهرَّب بعد إبعاده عن فلسطين، بالقول: "عليكم أن تدركوا أن كل فرد منكم عَلَمٌ فلسطيني... وأن أهم مسؤولياتكم في هذه الحقبة أن تصمدوا في أماكنكم أمام كل التحديات لتبقى هذه الأعلام خفاقة على أرض فلسطين الطيبة." حينها، كان الصراع مع العدو على كل شيء: من زراعة الشجرة إلى رفع العلم.

ولأن موضوع الصراع لم يتغير، فيتوجب على ذاتنا الجماعية الفاعلة ألا تتغير، ليظل كل فرد منا علماً عصياً على التنكيس. ولأن عدونا لا يزال يحرمنا من حقنا في الفرح وحقنا في الحزن، فلا بد أن نحافظ على مكانة جامعة بيرزيت ودورها كمؤسسة وطنية ورافعة جماعية في ظل التحدي الوجودي الأخطر في تاريخنا الوطني وفي ظل الإبادة الجماعية في غزة والحرب المفتوحة على عموم فلسطين. ولذا، فقد نذرنا أنفسنا، خلال إحياء المئوية وما بعد المئوية، لنعمل على ترسيخ رسالة الجامعة في أركانها الثلاثة، تعليماً وبحثاً وخدمةً للمجتمع،

بما يسهم، بشكل خاص في رفع الظلم عن شعبنا في غزة الصامدة وباقي أرجاء الوطن، ويسهم بشكل عام في مواصلة مسيرة الجامعة كمؤسسة وطنية رائدة: تدافع عن الحق في الحياة والحرية، وتنشر قيم الديمقراطية والتعدد والعمل النقابي والطلابي وتصونها، وتلتزم بالمقاطعة ومقاومة التطبيع كشرطين للحرية الأكاديمية وللحفاظ على جذوة التضامن العالمي، وتسعى بالممارسة الفاعلة إلى تحقيق جودة التعليم وتحررية المعرفة، وما سوى ذلك من منظومة القيم التي نحملها وتحملنا لتحقيق حلمنا الصعب لما ينبغي أن تكون عليه فلسطين.

هذه بعض ملامح جامعة بيرزيت على الطريق إلى المئوية الثانية وهي لا تقيم في الماضي رغم استحضاره، ولا تمكث طويلاً في الحاضر رغم ثقله، ولا تسمح للعدو بمصادرة المستقبل رغم ما يتهدده من خطر. في المئوية الثانية سنكون نحن قد مضينا إلى عوالم أخرى، وسيكون هنا، وعلى امتداد البلاد الحرة بين البحر والنهر، فلسطينيون آخرون يرددون حكاية البقاء والصمود والمقاومة في وجه أبشع عدو استعماري عرفه التاريخ. في المستقبل القريب، سيذكرون بفخر: كيف بقينا، وكيف صمدنا، وكيف قاومنا الوحش دون أن تتوحش أرواحنا، وكيف كنا "ملحَ الأرض، ونورَ العالم" في زمن انهيار الإنسانية العالمية الرسمية على مستوى الأخلاق والقانون والنظرية. سيروون تاريخ انتصار القلم على السيف، وانتصار الإرادة على الإبادة. سيذكرون أسماءَ نعرفها من أهل هذه المئوية، وبعض أسمائنا التي لا نعرف بعدُ موقعَها النهائي على أية قائمة في مدونة الشهداء والأسرى واللاجئين في فلسطين دون الشتات... لن يكون لبلادنا شتات حينها، ولن يكون في بلادنا المحررةِ مخيمات ولا سجون ولا ثلاجات ولا مقابر أرقام. حينها، سيزين المنتصرون "التابوت المفتوح" لذاكرة ألمنا الجماعي بأوراق الغار. حينها ستلمع في ذاكرة أهل المئوية الثانية أسماءٌ كالتي تلمع في أذهاننا الآن، وصور لآلاف الأوجه الغائبة في غزة وعموم فلسطين: كمال ناصر، شرف الطيبي، فتحي الشقاقي، يحيى عياش، عامر بدر، خضر عدنان، أيسر صافي... وليد دقة، خالدة جرار، مروان البرغوثي، زكريا زبيدي، صالح حسن، إبراهيم حامد... وكل منهم الآن "يطعم من شفة الحُب عصافير [السجن]، ويحاول تغيير الدنيا"... من دامون الكرمل إلى نفحة النقب.

تحيي جامعة بيرزيت المئوية الأولى وهي تعلن "إعادة الأمل" وتمارسه، والعيون كلها على غزة التي تقطن قلوب الملايين في العالم. لن نغني لأوقات الظلام، فال"جراح تغني"، بل سنردد معاً نبوءة كمال ناصر، شهيد جامعة بيرزيت الأول و"ضمير الثورة الفلسطينية" المولود في غزة في سنة تأسيس الجامعة 1924، النبوءة التي تبشر بالحرية والانتصار رغم تأخر ميعاد الفرح، ذلك أن "أغنية النهاية" الوحيدة التي نحفظها عن ظهر قلب هي: "لن نستريح والشعب دامٍ جريح" و"إن النهاية للشعوب، وإن تأخرت الشعوب... فيها ستنتصر الشعوب."

هذه غاية الشعر وقد أخجلته السياسة، وأما الشعار فما ترون لا ما تسمعون...

عبد الرحيم الشيخ
كلمة ألقيت في مناسبة إطلاق فعاليات مئوية بيرزيت الأولى
18 كانون الأول 2024